سلطة الحيز والمكان ودلالتهما في ثلاثية أحلام مستغانمي (ذاكرة الجسد ، فوضى الحواس، عابر سرير).

The Authority of Space and Place and Their Significance in Ahlem Mosteghanemi's Trilogy: "The Chaos of Senses" "Bed Hopper" and"Memory of the Flesh"

مناعي حسين*[1]؛ خلادي محمد الأمين.[2]

[1]. مخبر الدراسات الإفريقية للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية؛ جامعة أحمد دراية؛ أدرار؛ (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: *houcineme70@gmail.com*

[2]. جامعة أحمد دراية؛ أدرار؛ (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: *alaminek@univ-adrar*

تاريخ الإرسال: 2022/12/20؛ تاريخ القبول:2023/02/25؛ تاريخ النشر :2023/06/09.

الملخص:

يشكل الحيز عنصرا أساسيا في بناء النص الروائي يتطور ويتفاعل مع باقي العناصر الروائية الأخرى مشكلا حلقة سردية تعالج موضوعا معين، إلا أن بعض الدراسات تطرقت للمكان وجعلته الركيزة الأساسية في تشكيل النص الروائي، هذا الأمر أثار الكثير من الجدل حول مفهوم المكان والحيز، حيث رأى بعض الدارسين أن المكان هو الحيز نفسه، وهناك من رأى عكس ذلك، فالحيز هو مرادف لمفهوم الفضاء، أما الدكتور عبد المالك مرتاض وضح الفرق بين المكان والحيز وأعطى للمصطلحين الاستقلالية في المعنى معتمدا في ذلك على

*المؤلف المراسل.

الدراسات العربية القديمة(المعاجم) وكذلك بعض الدراسات الغربية .أما هذه الدراسة تسعى إلى إبراز حقيقة الحيز ودلالته من خلال الثلاثية، وعلاقته بالشخصية والذاكرة، فسلطة الحيز تظهر من خلال تلك العلاقات المتينة التي يقيمها مع باقي المكونات السردية يتشكل من خلالها عالم جمالي يضفي على النص السردي قيمة فنية وجمالية ترتسم في معالم العمل الروائي.

الكلمات المفتاحية: الحيز؛ المكان؛ عالم جمالي؛ الشخصية؛ المكونات السردية.

Summary:

Space is an essential element in the construction of fiction. It evolves and interacts with other fiction elements, forming a narrative flop that addresses a particular topic. Studies have touched upon the place and made it the main pillar of the composition of the fiction work. This has caused a debate about the concept of place and space. Scholars saw the place as the same space. Others saw the opposite. Place is synonymous with the concept of space. Abdulmalik Murtad clarified the difference between the terms relying on ancient Arabic and Western studies. This research paper aims at clarifying the reality of " space" and it's relationship with the personality and the memory through the trilogy. The power of space manifests itself through these solid relationships with other narrative components. It forms an aesthetic that gives the narrative an artistic value that is reflected in the features of the fiction work.
Keywords: space; place; aesthetic; character; narrative components.

مقدمة:

يعتبر المكان والحيز عنصران هامان في أي نص من النصوص الأدبية، وهو يدخل في علاقات مختلفة مع باقي عناصر النص السردي بحيث لا يمكن أن ينفصل عن الأحداث والشخصيات وكل العناصر

*المؤلف المراسل.

الروائية الأخرى، فالحيز والمكان يخدمان النص ويضفيان عليه نوع من الجمالية من خلال ما يحمله كل منهما من دلالات مختلفة، فهما ليس خلفيتان تقع فيها الأحداث بل يمثلان حضور ثقافة شخص من خلالهما يعبر عن انتمائه ومدى حبه لهذا المكان الذي عاش فيه وترعرع فيه فهو يمثل ذكرياته وأفراحه وأحزانه إنه المنبع الذي يستمد منه قوته ويعلق عليه أحلامه وآماله في الحياة.

1- الحيز من خلال ثلاثية أحلام مستغانمي:

إن ما يميز الحيز في روايات أحلام مستغانمي أن المتلقي عندما ينتهي من قراءة الرواية يجد قسنطينة عالقة في ذهنه ففي رواية **"ذاكرة الجسد"** نجد أحداثها تتوزع بين مدينتين هما قسنطينة وباريس" ها هي ذي قسنطينة. وها هو كل شيء أنت وها أنت تدخلين إلي، من النافذة نفسها التي سبق أن دخلت منها منذ سنوات. مع صوت المآذن نفسه، وصوت الباعة، وخطى النساء الملتحفات بالسوداء والأغاني القادمة من مذياع لا يتعب..« يالتفاحة ..يالتفاحة .. خبريني وعلاش الناس والعة بيك»، تستوقفني هذه الأغنية بسذاجتها تضعني وجها لوجه مع الوطن تذكرني دون مجال للشك بأنني في مدينة عربية ، فتبدو السنوات التي قضيتها في باريس حلما خرافيا " (أحلام ، ذاكرة الجسد، 2007، ص 11).

تمثل قسنطينة الحيز المميز الذي تدور فيه الأحداث من خلال تلك الخصائص التي طبعت مدينة قسنطينة (صوت المآذن، صوت الباعة، النساء الملتحفات بالسواد، الأغاني القادمة من المذياع..) كل عنصر من هذه العناصر يعطي دلالة ويقدم صورة عن طبيعة هذه المدينة، وفي المقابل تشكل باريس حيزا مختلفاً فرضت وجودها من خلال صورتها الجميلة، فالأحياز في الرواية تتعدد وفق لما يحتاجه السارد لبناء نصه، ويسهل على

*المؤلف المراسل.

الشخصيات التحرك والتفاعل مع هذه الأحياز. لأنها ليست مجرد رقعة جغرافية يعيش فيها الإنسان ويمارس حقه الاجتماعي إنما الحقيقة عكس ذلك، لأنه تمثل له الاستقرار والحياة والذكريات إنها منبع أسراره فمهما ابتعد عنها فسوف يطارده الشوق والحنين وتجتذبه ذكرياته.

لقد استطاعت الساردة أن تجعل من قسنطينة حيزاً يجمع بين الحب والحنين من جهة والخوف والألم من جهة ثانية "كان سجن (الكديا) وقتها، ككل سجون الشرق الجزائري، يعاني فجأة من فائض رجولة، إثر مظاهرات 08 ماي 1945 التي قدمت فيها قسنطينة وسطيف وضواحيهما أول عربون للثورة"(أحلام، ذاكرة الجسد، 2007، ص 30). صورة مؤلمة عندما يتذكرها الإنسان يشعر بالخوف والظلم، وتهتز نفسه، ويدمع قلبه، لأن السجن يمثل ذلك الحيز المظلم المخيف الذي يترك بصمة سوداء في ذاكرة الإنسان، فهو يعبر عن الغربة والعزلة والكآبة.

وعندما ننتقل إلى رواية "فوضى الحواس" نجد أن الأحداث تتوزع بين مدينتين هما قسنطينة والجزائر العاصمة، فتتحول السينما والمقهى من حيز القصة التي كتبتها "حياة " إلى حيز تزوره بحثاً عن بطل قصتها إضافة إلى بعض الأحياز الأخرى، فالسارد يمتلك التحكم في عناصر روايته، وبإمكانه أن يجبر أبطاله على قول وفعل ما يشاء، وبالتالي يحولهم إلى وسيلة طيعة تخدم عمله الفني. "قبل هذه التجربة لم أكن أتوقع أن تكون الرواية اغتصابا لغويا يرغم فيه الروائي أبطاله على قول ما يشاء هو، فيأخذ منهم عنوة كل الاعترافات والأقوال التي يريدها الأسباب أنانية غامضة، لا يعرفها هو نفسه، ثم يلقى على ورق أبطالا

*المؤلف المراسل.

متعبين مشوهين، دون أن يتساءل تراهم حقا كانوا سيقولون ذلك الكلام، لو أنه منحهم فرصة خارج كتابه؟"(أحلام، فوضى الحواس، 2007، ص 28).

تنتقل الأحداث إلى قاعة السينما لتصبح "حياة" في حيرة من أمرها، لأنه لم يترك لها مجال في مواصلة البحث عن حقيقته، وما يخفيه عنها، ولا عن سبب دعوته لها لمشاهدة الفيلم نفسه، الذي سبق أن دعاها إلى مشاهدته، يتحول هذا الحيز من صورته الحقيقية التي تتمثل في قاعة لعرض الأفلام إلى حيز يحمل دلالات متعددة، لأنه يعبر عن امتداد للذاكرة وحلقة تربط بين الماضي والحاضر وترمز إلى أفكار وحقائق كانت متوارية خلف مشاهدة هذا الفيلم.

إن الأحياز التي ذكرت في رواية " فوضى الحواس" سواء أكانت تتمثل في المقهى أم السينما أو "بيت حياة" أو "بيت أمها وعمها" ما هي سوى أحد العناصر الفنية التي تساهم في بناء العمل الروائي، فكل حيز من هذه الأحياز يحمل أبعادا ودلالات، فالبيت مثلا يعد قيمة جوهرية بالنسبة لأي شخص لأنه" جسد وروح وهو عالم الإنسان الأول قبل أن «يقذف الإنسان في العالم، كما يدعي الفلاسفة الميتافيزيقيين المتسرعين فإنه يجد مكانه في مهد البيت. وأي ميتافيزيقيا دقيقة لا تستطيع إهمال هذه الحقيقة البسيطة لأنها قيمة هامة، نعود إليها دائما في أحلام يقظتنا. الوجود أصبح الآن قيمة. الحياة تبدأ بداية جديدة تبدأ مسيجة، محمية دافئة في صدر البيت" (غاستون، 2006، ص 38).

استطاعت مستغانمي أن تجعل من قسنطينة والجزائر العاصمة حيزان رسمت من خلالهما أحداث روايتها، وأعطت لرواياتها طابعاً جمالياً متميزاً من خلال توظيفها لهذا الحيز، إذ شكلت قسنطينة ذلك

*المؤلف المراسل.

الحيز الذي يقيد حرية الأفراد ويحرمهم لذة العيش. "ما أتعس العشاق في هذه المدينة التي يعيش فيها الحب ممسكا أنفاسه جالسا في عتمة الشبهات على كراسي مزقتها بسكين أيد لم تلامس يوما جسدا امرأة"(أحلام، فوضى الحواس، 2007، ص 46).

إنها حالة العشاق في هذه المدينة تحبس أنفاسهم وتسلبهم حرية التعبير عن مشاعرهم فكل تصرفاتهم وحركاتهم هي قيد المراقبة. هذه هي قسنطينة وهذه هي حالها حالة من الرعب والخوف، فإذا مررت بشوارعها أصابك الذعر وغمرك اليأس بينما تأتي في المقابل مدينة الجزائر العاصمة التي يسودها الهدوء، فهي مدينة راقية لا علاقة لها بالاضطرابات التي تشهدها قسنطينة "لا شيء كان يشبه هنا شوارع قسنطينة المكتظة بالسيارات والمارة وضجيج الحياة كل شيء هنا جميل ونظيف، ومهندس بذوق، وكأنه ينتمي إلى مدينة أخرى أو كأنه وجد خطا هنا..."(أحلام، فوضى الحواس، 2007، ص146).

إن اختيار الساردة للأحياز وتوظيفها في الرواية يعطى لعملها الروائي صورة جمالية فهي تنقل المتلقي من درجة القراءة والتأمل إلى درجة الإعجاب والانجذاب نحو هذه الرواية، وذلك عندما تتشابك الأحداث وتتداخل الأمكنة وتتحرك الشخصيات، فالمكان بكل ما يحتويه من أشياء وشخصيات يساهم في تحديد وخلق المعنى داخل الرواية. ولعل قدرة الروائية في عملية خروج الحيز عن وجوده الواقعي إلى واقع متخيل يعطي الرواية أبعاداً مختلفة واحتمالات كثيرة ومتعددة تنتجها الكاتبة من خلال السرد لذا تحاول الروائية من خلال الوصف أن توسع من فضاء الرواية بتقنية فنية عالية بحيث تعطى مواصفات الحيز أبعاداً دلالية مختلفة تسهم في إبراز جماليات الرواية "بينما يتنقل العسكريون

*المؤلف المراسل.

بلثام أسود شبيه بجوارب صوفية تخفى رأسهم. فلا يبدو من ووجوههم سوى ثلاثة ثقوب يتحدثون ويرون بها دون أن يعرفوا ، أي كابوس هو هذا ؟ أستنتج أن هذه القاعة العارية الجدران المتسخة البلاط، البائسة المظهر تجمع دون تمييز بين المجرم والطالب المشبوه والمواطن الذي جاء لسبب ما ، والسارق الذي قبض عليه تواً وأنا!»(أحلام، فوضى الحواس، 2007، ص 113).

تمكنت الساردة من خلال الوصف أن تقدم لنا صورة عن هذا المكان المخيف بحيث لا يمكن التمييز بين المجرم والطالب والمواطن، فكلهم في مرتبة واحدة وسوف يعاقبون فوصف الحيز وما يحتويه يترك انطباعا عن الفضاء الفكري الذي تتحرك فيه الشخصيات، فيتحول إلى أداة تساهم في التعبير عن موقف الأبطال من الواقع ونظرتهم إلى الحياة، وتأتي رواية "عابر سرير" لتضع اللمسات ألأخيرة للثلاثية وتستكمل صورة العمل الفني لأن الروائية عمدت إلى الجمع بين أماكن الروايتين "ذاكرة الجسد" و"فوضى الحواس" كما جمعت بين شخوصها، بحيث أبقت على مدينة قسنطينة وجسورها عالقة في الذاكرة" رحت أتجول في ذلك المعرض، عندما استوقفت نظري مجموعة لوحات معروضة تمثل جميعها جسورا مرسومة في ساعات مختلفة من النهار بجاذبية تكرار مربك في تشابهه. كل ثلاثة أو أربعة منها للجسر نفسه : جسر باب القنطرة، أقدم جسور قسنطينة، وجسر سيدي راشد بأقواسه الحجرية العالية ذات الأقطار المتفاوتة، وجسر الشلالات مختبئا كصغير بين الوديان. وحده جسر سيدي مسيد ، أعلى جسور قسنطينة، كان مرسوما بطريقة مختلفة على لوحة فريدة تمثل جسراً معلق من

*المؤلف المراسل.

الطرفين بالحبال الحديدية على علو شاهق كأرجوحة في السماء"(أحلام، عابر سرير، 2007، ص 54).

بالرغم من الأماكن المختلفة التي ذكرتها أحلام مستغانمي في روايتي "ذاكرة الجسد" و"فوضى الحواس" إلا أنها عادت من جديد لذكر قسنطينة في روايتها "عابر سرير" وذلك من خلال استرجاع الذكريات فتظل قسنطينة الحيز الحاضر والغائب فيها.

إن إسقاط الحالة الفكرية أو النفسية للأبطال على الحيز الذي يتحركون فيه يعطي له دلالة أخرى تتجاوز الصورة المألوفة، فيتحول بذلك من صورته الثابتة إلى صورة تحمل أبعادا ودلالات أخرى تحرره من قيود الوصف. فالأحياز تختلف باختلاف طبيعتها، فالبيت، الغرفة، الزنزانة والمكتب وغيرها كلها أحياز تتضمن جدران وسقف وأبواب ولكن دلالة كل واحد من هذه الأحيزة تختلف بحسب توظيفها في العمل الروائي، لأن الشخصية التي يوظفها الروائي تحمل أفكاراً وتؤثر وتتأثر، وغير ذلك من التغيرات التي تطرأ عليها، وبالتالي فإن الحيز الذي تقيم فيه يعكس ردة فعلها و يبرز مدى تجاوبها معه، فالشخص المتواجد في الزنزانة ليس نفسه المتواجد في البيت لأن الزنزانة توحي إلى الخوف والظلم والعزلة والغربة كلها عناصر تؤثر على طبيعة الشخصية، بينما البيت يدل على الألفة والمحبة، الراحة والهدوء و هذا يفضي بنا إلى القول إبراز أهمية الحيز ودوره في تشكل النص السردي، فلأحياز باختلاف تشكلاتها من انفتاح وانغلاق وضيق وغيرها من التغيرات تؤدي دوراً هاما يساهم في إضفاء طابع الجمالية في الرواية وتفسح المجال أمام السارد ليحرك أبطاله بحرية حسب طبيعة الأحداث.

*المؤلف المراسل.

2- دلالة الحيز وعلاقته بالشخصية:

يرمز الحيز إلى ذكريات الطفولة، البيت، الأرض، الأم، فالشخصية تقيم علاقة حميمة معه، فهو ليس حيزاً جغرافياً فحسب، بل فضاء مفعم بالدلالات أيضا يتحول في الرواية الحديثة إلى عنصر جوهري يساهم في بناء الرواية. إن الحيز لا يتخذ صورة واحدة، وإنما يتراوح بين صورتين، بحيث يتحول في بعض الأحيان من صورته الأليفة التي تتمثل في تلك العلاقة الحميمة تتبادل فيها الشخصيات الأحاسيس والعواطف إلى صورة عدائية تدل على النفور "فقسنطينة مدينة منافقة، لا تعترف بالشهوة ولا تجيز الشوق، إنما تأخذ خلسة كل شيء حرصا على صيتها كما تفعل المدن العريقة، ولذا فهي تبارك مع أوليائها الصالحين... الزانين أيضا.. والسراق!"(أحلام، ذاكرة الجسد، 2007، ص 142).

صورة سيئة لمدينة قسنطينة التي كانت تمثل منبع الذكريات من خلال صورتها الجميلة وجسورها المعلقة، ها هي الآن تتحول إلى مدينة متواطئة مع الفاسدين، من خلال تحوله من صورتها الأليفة إلى صورة توحي بالقلق والنفور وعدم الاستقرار، فلم يبقى للخصال الحميدة وجود، فأصبحت الخطيئة سمة لصيقة بقسنطينة بسبب تلك الأيدي التي دنستها. إن التحولات التي تطرأ على هذا الحيز تنعكس مباشرة على الشخصية، فالمدينة الجميلة العريقة التي رسمت لسكانها صورة جميلة تحولت لخراب عندما أصبحت ملجأ للصعاليك يعيشون بها، هذا الأمر انعكس سلبا على الشخصية التي تعيش فيه، فالعلاقة القائمة بين الحيز والشخصية ليست علاقة يغلب عليها طابع المنفعة فقط، ولا تقتصر على مدى ممارستها لكل حقوقها فيه، وإنما هي علاقة متبادلة بينهما.

*المؤلف المراسل.

لم تركز الساردة على مدينة قسنطينة وجسورها والجزائر العاصمة بوصفهما حيزان تستمد منهما الشخصية حضورها، بل تناولت كذلك البيت على أساس أنه الحيز الأول الذي ينشأ فيه الكائن ويبني شخصيته ويفرض وجوده، فهو "ركننا في العالم. إنه كما قيل مراراً كوننا الأول، كون حقيقي بكل ما للكلمة من معنى. وإذا طالعنا بألفة فسيبدو أبأس بيت جميلا"(غاستون، 2006، ص 36).

يتحول البيت إلى حيز صغير وضيق، بحيث يصبح له هوية بما يمتلكه من أثاث، فالبيت من خلال ما يحويه يحمل ثقافة تلك الأسرة وتاريخها ومهما انتقل الإنسان من هذا الحيز إلى أحياز أخرى فسوف يحن دائما إلى بيته لأنه يمثل امتدادا له "هذا البيت يشبهني. نوافذه لا تطل على أحد. أثاثه ليس مختاراً بنية أن يبهر أحدا. وليس له من سر يخفيه على أحد كل شيء فيه أبيض شاسع. لا تحده سوى خضرة الأشجار أو زرقة البحر والسماء. بيت لا يغري سوى بالحب والكسل وربما بالكتابة"(أحلام، فوضى الحواس، 2007، ص 140).

إن صورة البيت داخل هذه الرواية لا يمثل صورة إنسانية و حسب، بل يحمل معان ودلالات مختلفة، كما أنه وعي الذات بالحيز الذي تعيش فيه وهذا الأمر ينطبق كذلك على باقي الأحياز التي تصادفنا في الأعمال الروائية والأدبية كالمدينة والغابة والمقهى والشارع وغيرها، لأن طبيعة العلاقة التي تربط بينه وبين الشخصية غير مستقرة بحيث تتحول من حالة الانسجام والألفة إلى حالة التوتر والاضطراب وذلك من خلال التصدع الذي يحدث بينهما، فتصبح العلاقة بينهما علاقة تناقضيه يحب فيها الإنسان مدينته بالرغم أنها شردته وقهرته، وعليه يتحول الحيز إلى مسرح للأحداث والصراعات فتتحول العلاقة بينهما إلى صورة عدائية

*المؤلف المراسل.

تؤثر على أحاسيسه ومشاعره، فلا يمكن أن ننظر إلى البيت مثلا على أنه مجموعة من الجدران والأثاث، أو أن نكتفي بإعطاء صورته الخارجية بالتفصيل وإنما ينظر إليه على أنه مجموع الثقافات و العادات والمعتقدات التي تتصل بالإنسان منذ ولادته. كما أنه يوفر للإنسان الحماية من الأخطار والصعوبات التي تواجهه في حياته اليومية.

يمثل البيت بالنسبة للشخصية حيزاً تثبت من خلاله كيانها، وتمارس فيه نشاطها فهو الذي يحميها من مخاطر الطبيعة "وهكذا فإن البيت الذي يواجه بالعدوانية الوحشية للعاصفة والإعصار، تتحول فضائل الحماية والمقاومة التي يمتلكها إلى فضائل إنسانية. إنه يكتسب القوة الجسدية والأخلاقية للجسد الإنساني إنه يستجمع نفسه حين يتلقى زخات المطر، ويشمر عن ساعديه، ينحني أمام العاصفة ولكنه واثق أنه سوف يستعيد وضعه الطبيعي في الوقت المناسب، في حين يرفض الهزيمة المؤقتة. بيت كهذا يستثير بطولة ذات أبعاد كونية، إذ هو أداة نواجه بها الكون"(غاستون، 2006، ص 67).

تختلف دلالة الحيز ووظيفته في الرواية، بحيث يصبح عنصراً فعّلا للمادة الحكائية والأحداث، فيتحول إلى مكون روائي يسيطر ويهيمن على عناصر الرواية وبنائها، فالحيز الروائي هو بناء لغوي بامتياز، يؤسسه ويشيده خيال الروائي والجانب اللفظي فيه يجعله يتضمن كل المشاعر والتصورات التي تستطيع اللغة التعبير عنها، ويساهم في المحافظة على نسيج النص، ولا يمكن دراسة الحيز منعزلا عن باقي عناصر الرواية، وإنما يشارك في تلك العلاقة التفاعلية مع المكونات الحكائية للسرد، كالزمان والأحداث والشخصيات. فإن دراسته بعيداً عن هذه العلاقات يجعل الأمر أكثر صعوبة في فهمه داخل العمل

*المؤلف المراسل.

الروائي، فالمواصفات التي يتخذها تقدم لنا أبعاداً دلالية أخرى، بحيث تعطي الرواية صورة فنية تعمل على إضاءة الرواية من جميع جوانبها. لأن لكل صفة من صفات الحيز إفرازاتها على المستوى النفسي والاجتماعي والثقافي لشخصيات الرواية، فتتحول العلاقة التي تربط بينه وبين الإنسان الذي يعيش فيه إلى علاقة عشق بحيث يصعب عليه مغادرته، وهذا ما أشارت إليه أحلام مستغانمي عندما حكمت على هذه العلاقة بالترابط بحيث يشكل جزء من تجربته في الحياة لأن" المرء كذلك بقدر ما ينظم الفضاء ينظمه الفضاء .اختراق متبادل. تفاعل يدخله المرء عبر سيرورة تجربته في الوجود وعبر اضطراد تشكل تصوراته وخبراته وتشييد معرفته" (حسن ، 2000، ص32).

يشكل الحيز واقعاً بالنسبة للشخصية لا يمكن الانفصال عنه، لأنه يحدد معالمها وثقافتها ويحمل كل ذكرياتها وكل ما يحقق وجودها، كما يعمل على شحن روحها بالأمل ويمدها بالقوة لمواصلة مسيرتها في الحياة . فالعلاقة التي تربط بين الحيز و الإنسان هي علاقة عضوية لأن وجود الإنسان لا يتحقق إلا من خلال تلك العلاقة القائمة بينهما، فالإنسان بطبعه يميل دائما إلى البحث عن رقعة من الأرض من أجل الاستقرار فيها و تكوين أسرة، فيحقق بذلك وجوده، ومن خلال أحداث الرواية سوف تتضح أهمية الشخصية ومدى علاقتها بالمكان فالروائية تقوم باختيار شخصياتها مراعية طبيعة الموضوع الذي تعالجه فتجعل المكان من خلال التفاعل الحاصل بينه وبين الشخصيات يتحول من شيء ثابتاً إلى عنصر مفعم بالحركة مما يجعله يكتسب حمولة دلالية وقيمة رمزية تحقق له حضوره و تمنحه قيمة جمالية.

*المؤلف المراسل.

اهتمت الساردة بالعلاقة التي تقيمها الشخصية مع الحيز "لقد اخترت هذه الشقة الشاهقة لأن الضوء يؤثثها وهو كل ما يلزم للرسام فاللوحة مساحة لا تؤثث بالفوضى وإنما بالضوء ولعبة الظل والألوان"(أحلام ، ذاكرة الجسد ، 2007، ص 159).

في هذا الملفوظ السردي يتضح أن "حياة" تفضل هذا الحيز "الشقة" بسبب ميولها وحبها له فهو يحرك مشاعرها ويحقق لها حضورا من خلاله تكشف عن انتمائها الاجتماعي. ترتسم معالم الشخصية في العمل الروائي من خلال تفاعلها مع الأحداث، ومدى تجاوبها مع الحيز الذي وجدت فيه عن طريق التعبير عن أحاسيسها ومشاعرها ووجهة نظرها، فتكون بذلك قد شاركت في البناء الفني للرواية من خلال إعطاء صورة ذات طابع جمالي يحقق للمتلقي متعة القراءة ومتابعة أحداث الرواية.

إن علاقة الشخصية بالحيز في روايات مستغانمي ليست علاقة عادية، وإنما تقيم هذه الشخصية علاقة وجدانية، فتستمد حضورها، وتعطى للحيز دلالات ومعان من خلال تحركها، فالحب والكراهية والحنان، الدفء والبرودة، الخوف والأمل حالات نفسية متغيرة من لحظة إلى أخرى، هذه التغيرات تولد مجموعة من المعاني المتعددة تحدد معالم الشخصية وملامحها، بحيث يمكن التمييز بين شخصيتين استناداً إلى الحيز الذي تنتمي إليه، ومن خلاله يمكن أن يفصح لنا عن طبيعة الحالة الاجتماعية وطرق التفكير "افتح باب السيارة من الجانب المطل على الجسر. أقترب من سوره الحديدي فتفاجئني قسنطينة كما لم أرها يوما من جسر: هوة الأدوية الصخرية المخيفة موغلة في العمق، تزيدها ساعة الغروب وحشة"(أحلام، فوضى الحواس، 2007، ص 106).

*المؤلف المراسل.

لقد أثر الحيز في الشخصية التي عبرت عن حالتها النفسية، وهي تطل من أعلى ذلك الجسر، فإذا بمدينة قسنطينة ترتسم نصب عينيها، صورة تعبر عن الخوف أضفت انطباعا لدى الشخصية، فجعلها تعبر عن مشاعرها إزاء هذا المشهد. فالتغيرات التي تطرأ على الشخصية من فرحا وحب وخوف وغيرها داخل الثلاثية كلها حالات خاضعة لطبيعة الحدث والحيز الذي تتحرك فيه هذه التغيرات تعطي للحيز أبعاداً ودلالات مختلفة من خلالها تستطيع الروائية أن تجعل المتلقي يتعايش ويتفاعل مع الأحداث حيث "إن فعل الشخصية وسلوكها في الرواية لأزمان، سواء لكشف وضعها الإيديولوجي وكلامها أو لاختبارهما"(ميخائيل، 1987، ص 102). فما ينتج عنها من أفعال وسلوكات يحدد موقفها إزاء ذلك الوضع الذي تعيشه فشخصية "خالد" في رواية "ذاكرة الجسد" تطرأ عليها تغيرات عديدة فهي شخصية رئيسة متطورة. يحكي السارد(خالد) عن حياته حيث أصبح الوطن هو حلمه الوحيد وتتطور الأحداث خاصة عندما أحب مدربه وقدوته "سي الطاهر" عندما التقى به في معسكرات التدريب. وتتوالى الأحداث وتتشابك، وينتقل خالد من مرحلة إلى أخرى حيث غمره اليأس والحزن خاصة عندما عاد إلى الجزائر بعد مشوار طويل، ليتعرف على جثة أخيه ويرافقها إلى مدينة قسنطينة ويدفنها هناك، وبذلك تبرز معالم شخصية خالد التي تميزت بالتناقض لقد أحب الجزائر ودافع عنها، لكنه كان يهرب إلى فرنسا، أحب أحلام التي تمثل الوطن لكنه كان ينام مع كاترين الفرنسية. كانت شخصيته تزاوج بين همه الشخصي والهم العام الوطني والعربي، كما بين مدى تعلقه بمدينة قسنطينة من خلال جسورها المعلقة التي وجد فيها راحته ونقل من خلالها أحزانه وأفراحه." في تلك الغرفة التي يؤثثها سرير فارغ

*المؤلف المراسل.

ونافذة تطل على المآذن والجسور وطاولة فارغة من لوازم الرسم، لم أجد لي من طوق نجاة سوى بضع أوراق وأقلام فقط، وزجاجة ويسكي أحضرتها لحسان قبل أن يتوب ومازالت في حقيبتي تنتظر. فأحضرتها ورحت أشرب ذلك الصباح نخب زياد وسي الطاهر.. ونخب قسنطينة" (أحلام ، ذاكرة الجسد، 2007، ص 343). صورة عبرت عن الألم والحزن استطاع خالد أن ينقل مشاعره وأحاسيسه من خلال وصف تلك الغرفة، وما يحيط بها فربط بين الحاضر والماضي، وتألم لفراق زياد وسي الطاهر، أما مدينة قسنطينة لم تفارق خياله بل زادته الغربة حباً لها وشوق لجسورها التي تمثل مرحلة من مراحل حياته.

يتضح من خلال هذا كله أن هناك تأثير متبادل بين الشخصية والحيز، بحيث لا يمكن أن نفصل الشخصية عن الحيز ولا أن نتناول الحيز خالياً من الشخصية إذن هذه العلاقة هي التي تخلق تلك الصورة الفنية، وتعطي للعمل الروائي قيمة جمالية، فمن خلال الحيز نستطيع الكشف عن حقيقة الشخصية ونمط حياتها وطريقة تفكيرها فيصير المكان أصدق تعبيراً.

ترمز الشخصية إلى عينة من عينات المجتمع لأنها تحمل أفكاراً و توجهات و تتأثر بالأحداث وتتفاعل مع الوقائع، وهذا ما يظهر في رواية "ذاكرة الجسد" حيث عمدت "أحلام مستغانمي" إلى استنطاق الشخصية عن طريق استدعاء الذكريات من خلال اختيار الشخصيات وتحديد لكل منها وظيفة في إطار مكاني وزماني محدد، مما يجعلها تمزج بين العالم الواقعي والخيالي فإدراك حقيقة الشخصية في العمل الروائي لا يتوقف على مدى نجاحها في تمثيل المواقف المختلفة في الرواية، وإنما من خلال قيمتها الفنية داخل هذا العالم، كما أن وجودها الفني لا يتحدد

*المؤلف المراسل.

بطرحها سنداً لمضمون قيمي فحسب، وإنما من خلال مجموعة الإنزياحات التي تدرك كوجود جديد يربط بين الواقع والخيال.

تقف الشخصية موقف الروائية، حيث تقدم هذه الأخيرة شخصيات روايتها مركزة على الفئة التي تمثل الطبقة الساذجة التي تحولت إلى مجتمع مهمشا، كربات البيوت الجاهلات وأرامل الشهداء والموظفين في أسلاك التعليم، ويعود سبب تهميشهم إلى موقعهم المتدني داخل المجتمع، وضعف أفكارهم وسخف طموحاتهم وأهدافهم في الحياة مما أدى إلى إفراز ضيق في الرواية وتوضح الروائية ذلك من خلال ما نطق به حسان أخ خالد بن طوبال كان يقول: لكي تكون سعيداً عليك أن تنظر إلى من تحتك فإذا كان في يدك قطعة رغيف، ونظرت لمن ليس في يده شيء ستسعد وتحمد الله...هكذا كان حسان... ((لقد كانت نظرته إلى الأشياء نظرة عمودية، فقد تعلم كل ما تعلمه في صباه في سبورة بالحائط ...)) وكان سعيداً بتلك النظرة التي قد تعود أيضا إلى عقليته كموظف محدود الدخل...ومحدود الأحلام !فبم يمكن أن يحلم أستاذ للعربية يقضي يومه في شرح النصوص الأدبية، وسرد سيرة الكتاب والشعراء القدامى على تلاميذه ... وتصحيح أخطائهم النحوية والإنسانية ...كان في أعماق حسان مرارة غامضة تبدو على كل تفاصيل حياته، ولكنه كان يحتفظ بها لنفسه"(أحلام، ذاكرة الجسد، 2007، ص 300-301).

من خلال هذه المقطع السردي نلاحظ مدى ضيق تفكير حسان في نظرته للحياة التي اقتصرت على الحصول على لقمة العيش دون التطلع إلى أفاق عالية أو طموحات مستقبلية. إن ما وقع لحسان يوضح مدى تأثره بالمحيط الذي يعيش فيه لقد استطاعت مستغانمي من خلال شخصياتها

*المؤلف المراسل.

أن تقدم لنا حقائق انطلاقا من دراسة طبقات المجتمع ، فمنطق الطيبة والتعلق بالأحلام يؤدي بالشخص إلى الاصطدام بحقائق مرة تنعكس سلبا عليه.

3- علاقة الذاكرة بالمكان:

تتمثل الذاكرة في تلك الصور التي سبق إدراكها في الماضي من خلال تخزينها ويتم استدعائها عند الحاجة، فهي عبارة عن قدرة نفسية وعقلية تقوم على بحث حالة شعورية ماضية، فالإنسان لا يستطيع ممارسة نشاطاته منعزلا عن ذاكرته لأنها تمثل جزء من حياته، بحيث تحافظ على وجوده وتمده بطاقة وتربط ماضيه بحاضره. حيث أيقضت الساردة الذاكرة بالاعتماد على العناصر الفاعلة المثيرة من خلال توظيفها واستثمارها في ثلاثيتها المعروفة خاصة رواية "ذاكرة الجسد" حيث ركزت على الذاكرة من أول الرواية إلى آخرها.

يشكل بطل الرواية "خالد بن طوبال" السارد الرئيس في رواية "ذاكرة الجسد" من خلال ما تمليه عليه ذاكرته، فنجده في موقف من المواقف يتذكر بيتا للشاعر "هنري ميشو" "... ((أمسيات أمسيات.. كم من مساء لصباح واحد)).كيف تذكرته، ومتى تراني حفظته؟ تراني أتوقع منذ سنين أمسيات بائسة كهذه، لن يكون لها سوى صباح واحد؟ أنقب بعض الشيء في ذاكرتي عن القصيدة التي أخذ منها هذا البيت وإذا بعنوانها "الشيخوخة" .. فيخيفني اكتشافي فجأة، وكأنني أكتشف معه ملامح وجهي الجديد. فهل تزحف الشيخوخة هكذا نحونا حقا. بليل طويل واحد، وبعتمة داخلية تجعلنا نتمهل في كل شيء، ونسير ببطء، دون اتجاه محدد؟ أيكون الملل والضياع والرتابة جزءا من مواصفات الشيخوخة، أم من مواصفات هذه المدينة؟ تراني أنا الذي

*المؤلف المراسل.

أدخل الشيخوخة..أم ترى الوطن بأكمله هو الذي يدخل اليوم سن اليأس الجماعي؟ أ ليس هو الذي يملك هذه القدرة الخارقة، على جعلنا نكبر ونهرم في بضعة أشهر، وأحيانا في بضعة أسابيع فقط؟" (أحلام ، ذاكرة الجسد، 2007، ص 22-23).

إن استدعاء الذكريات و توظيفها في هذه الرواية يعطي النص السردي جانباً فنياً متميزاً، بحيث يتدخل الماضي من أجل رسم صورة المستقبل، فيأتي دور اللغة في إثراء هذا المشهد السردي، لأن استحضار الأحداث الماضية يساعد في تفعيل تلك اللغة الانفعالية التي هي نتاج تفاعل الأحداث الماضية والحاضرة، فأحداث رواية "**ذاكرة الجسد**" هي وليدة ذاكرة "خالد بن طوبال" التي ارتبطت بجسده، فعبرت عن فترة أليمة ارتبط بالثورة الجزائرية، فتحول الجسد لذاكرة حملت أسراره، فاليد المبتورة تثير العديد من الأسئلة التي تحتاج لإجابة، فكانت الذاكرة الوسيلة الوحيدة التي عملت على إزالة هذا الالتباس.

تخاطبنا الساردة على لسان بطلها "خالد بن طوبال" مشيرة إلى ذلك التاريخ المشؤوم حيث تحول الشهر الذي يعبر عن مرحلة زمنية معينة إلى كابوس يستفز الذاكرة ويشحن الأحاسيس والمشاعر، فالفترة القاسية المؤلمة التي عاشها "خالد بن طوبال" عمدت أحلام مستغانمي على إحيائها من خلال تفعيل ذاكرته واسترجاع الأحداث، حيث تركت هذه الذكريات بصمة في حياته عن طريق الاعتماد على تقنية الاسترجاع والتداعي التي تحقق جمالية الإبداع في العمل الروائي.

إن الروائي يمكنه تأسيس ووضع عوالم خيالية يضفي عليها جانباً من الواقع فيحول نصه من نص يتضمن أحداث مختلفة إلى نص فني يحمل قيماً وعناصر فنية تعطي لهذا العمل نوعاً من الجمالية

*المؤلف المراسل.

والتصوير الفني، فيستخدم اللغة بوصفها أداة طيعة تحمل دلالات مختلفة تعمل هذه اللغة على رسم معالم الرواية. ولا تقتصر عملية سرد الأحداث على الذاكرة فقط وإنما تلعب آلية التخييل دوراً هاما في استعادة واستحضار حالات شعورية ماضية ويتم تركيبها بطريقة مميزة، وهنا يتجسد ما يسمى الإبداع فالمبدع يستطيع أن يمزج ويجمع الأشياء الواقعية بالخيالية، أو بمعنى أدق الواقع مع الحالات الشعورية الماضية. هذا الأمر نلمحه من خلال ما أشارت إليه أحلام مستغانمي في روايتها فوضى الحواس "ما كدت أغير ثيابي حتى حملت جرائدي وذهبت نحو الحديقة، لا بنية مطالعتها إنما بنية أن أخلو بنفسي لا تصفح قصتي مع هذا الرجل، الذي طاردته لاهثة في شوارع قسنطينة.. وعندما يئست من أمره وسافرت، وجدته قد سبقني إلى هنا... ذلك أنك لا يمكن ألا تتذكر كل مرة تلك المقولة الجميلة لأسكاروايلد ((ثمة مصيبتان في الحياة: الأولى ألا تحصل على ما تريده.. والثانية أن تحصل عليه!))"(أحلام، فوضى الحواس، 2007، ص 153).

يبرز هذا المقطع السردي أن الساردة تستند إلى ركائز أساسية هي الذاكرة من خلال عملية الاسترجاع وتجليات الواقع التي لا تستطيع الشخصية التخلص منها فالساردة تعبر عن رفضها لهذه الحال النفسية المضطربة بين السكون و القلق و الشك وعدم اليقين بحيث أصبحت الحياة مسرحاً للصراعات الفكرية والإيديولوجية هذا الاضطراب والإحساس المتغير من حين إلى آخر أضفى على السرد نوع من الجمالية من خلال تلك الصورة الفنية التي رسمتها الساردة، فهي تعيش حالة نفسية متوترة تتصارع فيها القيم الأخلاقية الصالحة مع الأخلاق الفاسدة، حيث شكلت الذاكرة عنصراً هاماً.

*المؤلف المراسل.

إن تفعيل هذه الأحداث من خلال ربط الحاضر بالماضي واستخدام التخييل ينعكس على النص السردي، لأن السرد يفتح الأفق أمام السارد لتمرير أفكاره ويوسع من مجال الفضاء، ويكسب الرواية قيمة فنية من خلال عناصرها الفنية من شخصيات وغيرها، فالذاكرة تعمل من خلال عملية الاسترجاع للأحداث الماضية، حيث يقوم السارد ببلورتها وسردها وفقا لأمكنة وأزمنة محددة، بينما يعمل التخييل على توسيع دائرة السرد فيضفي على النص السردي لمسات جمالية تقوم الروائية من خلال التلاعب باللغة على تصوير مشاهد فنية ينقل بها المتلقي من عالمه الحقيقي إلى عالم الخيال مما يعطي للنص دلالات متعددة.

إن العلاقة التي تربط الذاكرة بالمكان هي علاقة متينة، لأن هذه الأمكنة تكتنز الذاكرة ومهما انتقل الشخص من مكان إلى آخر، إلا أنه لا يستطيع أن يمحوها من ذاكرته لأنها مجسدة بكل ما يحيط بها من أشياء وأشخاص، فالحجرة وكل ما تحتويه من أشياء مادية ومعنوية تمثل بالنسبة للشخص مكان يرتاح فيه، ويستعيد ذكرياته، فهي تسكن الذاكرة وتشكل جزءاً من حياة الشخص و"إن أصوات الماضي تبدو مختلفة في الحجرة الكبيرة، عنها في حجرة النوم الصغيرة، كما أن صوت النداء من فوق السلم مختلفة عن كليهما وأصعب الذكريات المتجاوزة لأية هندسة يمكن رسمها هو محاولتنا أن نستعيد نوعية الضوء، ثم يلي ذلك الروائح التي تتلبث في الحجرات الفارغة واضعة ختما أثيريا على حجرة من حجرات بيت الذاكرة"(غاستون، 2006، ص 77).

إن الحجرة بوصفها المكان المفضل للشخص في جميع مراحل حياته، وبكل ما تتضمنه هذه تعد جزءاً مهماً من حياته ومختزنة في

*المؤلف المراسل.

ذاكرته، فالشخص يشعر بأن هناك رابطاً روحياً قوياً بينه وبين المكان الذي يعيش فيه، ففي أغلب الأحيان يحب الإنسان المكان الذي نشأ وترعرع فيه، ويتجلى الشعور بهذا الحب عندما يغادره إلى مكان آخر ويبتعد عنه، إذ سرعان ما ينتابه الحنين والشوق إليه، وكلما زادت فترة البعد عنه كلما زاد حنينه له وهذا الانتماء القابع في أعماقه لابد أن يدفعه إلى العودة إليه.

إن العوامل والظروف التي تعزز هذا الانتماء هي الذكريات المرتبطة بذاكرته وخاصة ذكريات الطفولة التي جرت في مكان نشأته لأنها ترتبط بشعوره وعاطفته وتساهم في خلق هذا الحب للمكان تقول: "...أحببت هذا البيت: هندسته المعمارية تعجبني وحديقته الخلفية، حيث تتناثر بعض أشجار البرتقال والليمون، تغريني بالجلوس على مقعد حجري، تظلله ياسمينة مثقلة، فأجلس، وأستسلم للحظة الحلم" (أحلام، فوضى الحواس، 2007، ص 140). ركزت الساردة على هذا المكان من خلال ما يحيط به مما جعلها تنجذب نحوه فالأشجار وظلالها منحتها القوة والأمل، وهذا يدل على مدى تأثرها وتعلقها بهذا المكان، فهذا الإعجاب والحب لهذا البيت أيقظ فيها الإحساس.

إن علاقة هذه الشخصية بالمكان تبدأ من خلال المعرفة المرتبطة به، فعلاقتنا بالبيت تختلف عنها مع الشقة المستأجرة أو الغرفة أو الفندق، ولا تبقى هذه العلاقة ثابتة بل تتغير بفعل عناصر أخرى من خلال حالة المرء في بداية علاقته بهذا المكان سواء من الناحية النفسية أو المادية، فالذاكرة مثلا تعمل على استعادة الحدث بربطه مع المكان نفسه مهما طال الزمن، بحيث يجد المرء ذاكرته مليئة بالمواقف والأحداث والأفكار، لأن الإنسان لا يستطيع الإفصاح عن أفكاره

*المؤلف المراسل.

وذكرياته ومخاوفه بعيدا عن حيز مخصوص سواء واقعيا كان أم خياليا.

إن المكان في روايات مستغانمي يغذو بطلاً يتحكم في مصائر الشخصيات فهو عنصر جمالي مرتبط ارتباطاً كليا بنسيج الرواية ومضامينها، ويدخل في تكوين الشخصية وتفاعلها مع محيطها، فالمكان المسجل في ذاكرتنا له القدرة على تشكيل صورة بقية الأمكنة التي نتصورها، فطبيعته تسهم في تشكيل المزاج الذهني للشخص في لحظة معينة فالجسد بوصفه مادة مجسدة في الواقع يعيش ويكبر ويتفاعل مع الآخرين ضمن مكان معين وأمكنة متعددة من تحركاته وسكناته، وكذلك التغيرات التي تطرأ على حالته النفسية أو ما يسمى التداعي النفسي. يؤثر المكان في الشخصية، فيتحول إلى بؤرة فاعلة في حياتها ويظهر ذلك على تصرفاتها وأحاسيسها ومشاعرها، ومهما ابتعدت عنه فإن صورته تبقى عالقة في ذهنها من خلال الذاكرة التي تقوم بحفظ ذكرياتها ويتم استرجعها عندما تصادف موقف أو مشهد يذكرها به، أو عندما تحس بالغربة وهي بعيدة عنه، لأن الذاكرة هي جزء من الجسد الذي يعتبر عنصر من العناصر التي تجعل الذاكرة تنزف بصورة واعية أو لا واعية فينطلق اللسان في عملية سرد هذه الذكريات، فيكون الكلام مسترسلا عفويا عن طريق التداعي المرتبط بالذاكرة تشير الساردة إلى ذلك "... وأنت الذاكرة المعطوبة التي ليس هذا الجسد المعطوب سوى واجهة لها؟" (أحلام ، ذاكرة الجسد، 2007، ص 73).

إن الجسد واجهة يعكس ما تحمله الذاكرة من وقائع وحقائق، فاليد المبتورة لخالد بن طوبال رسمت تلك الفترة الزمنية التي عاشها،

*المؤلف المراسل.

فانعكس ذلك على حياته ونلمس هذه الحقيقة من خلال هذه الصورة التي جسدت خالد وذاكرته التي يحملها جسده " كنت تحمل ذاكرتك على جسدك ولم يكن ذلك يتطلب أي تفسير" (أحلام، ذاكرة الجسد، 2007، ص72). ومن هنا كانت ذاكرته تعبر عن حبه لوطنه ومدى استعداده للتضحية من أجله فقد حافظت هذه الذاكرة على أسرار المكان الذي عاش فيه. ولم تقتصر أحلام مستغانمي على إبراز خصائص الذاكرة الفردية، إنما حاولت تفعيل الذاكرة الجماعية وإبراز علاقة التأثير والتأثر بين الجسد والذاكرة من جهة، وعلاقة الذاكرة بالمكان من جهة أخرى، فلا يمكن للشخصية أن تواصل حياتها منعزلة عن ذاكرتها.

إن قدرة المبدعة تبرز لنا من خلال مدى تعاملها مع الحيز والمكان عن طريق إدراكها الخاص وبخيالها وأحاسيسها ورؤيتها لطبيعة الأشخاص القاطنون فيهما أو المرتحلين عبرهما، حيث عمدت إلى استخدام كل العناصر المتاحة لبناء نصها، فالذاكرة والجسد عنصران جوهريان يساعدان على إضفاء طابع الجمالية على نصوصها الروائية ويساهم في تشكيل الحيز والمكان ورسم معالمها بداخلها، فكانت اللغة الوسيلة الطيعة التي من خلالها استطاعت الروائية تقديم عملها في حلة باهية عن طريق تلك المفردات المفعمة بالأحاسيس الجميلة التي أعطت للحيز والمكان حضورا في نصوصه السردية.

قائمة المصادر والمراجع:

1- باختين ميخائيل. (1987). **الخطاب الروائي**. القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر.

2- باشلار غاستون. (2006). **جماليات المكان**. تر: هلسا غالب. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

*المؤلف المراسل.

3- مستغانمي أحلام. (2007). **ذاكرة الجسد**. بيروت: دار الأدب للنشر والتوزيع.
4- مستغانمي أحلام. (2007). **عابر سرير**. بيروت: دار الأدب للنشر والتوزيع.
5- مستغانمي أحلام. (2007). **فوضى الحواس**. بيروت: دار الأدب للنشر والتوزيع.
6- نجمي حسن. (2000). **شعرية الفضاء(المتخيل والهوية في الرواية العربية)**. بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

*المؤلف المراسل.